الريشة البندقيّة

عين المخيّم التي لا تنام

عبدالرحمن جاسم

قبل أعوام، وبعد استشهاد ناجي العلي في لندن، نحت شربل فارس تمثالاً للراحل (من الفايبرغلاس والبوليستر والمعدن) ووضعه على مدخل مخيّم عين الحلوة الشمالي (في الشارع التحتاني تحديداً)؛ باعتباره أثراً لفنانٍ شهيد اعتبر المخيّم بيته الأوّل والأخير حتى عودته إلى قريته الشجرة في فلسطين. لم يدم التمثال لأكثر من أشهر. أطلق النار عليه (نعم أطلق النار أسفل عين التمثال) ثم سحل في الشارع، أعاده أحباء ناجي إلى مكانه بعد إصلاحه، إلا أنه سرعان ما عاد واختفى. هل كان المخيّم يكره ناجي؟ يعرف الجميع في عين الحلوة من هو ناجي العلي وماذا يمثّل. لذلك لا يمكن لأحدٍ أن يكرهه. فقط أولئك المتلمقون لأصحاب النفوذ والسلطة يكرهونه، لأنه لم يوفّرهم أبداً. لذلك حدث ما حدث للتمثال (رغم أنّ جماعاتٍ «تكفيرية» اتهمت بالأمر).

مرةً أسرّ ناجي لأحد أصدقائه بأنه ضاق به الحال من أحد «المستزلمين» الكبار في المخيّم. أشار عليه صديقه بأن يتحدّث مع أبو فلان أو أبو علان (من الزعماء المحلّيين في تلك المرحلة). رد ناجي الغاضب السريع كعادته كان الجواب الشافي: «بدك ياني أشحد من هدول؟ يا ويلي». ناجي ذهب إلى ذلك المستزلم وواجهه؛ ومن الواضح أنه لم يحدث للكاريكاتوريست الفلسطيني الأشهر أي شيء. لم يكن ناجي ليهادن أو يمرر أو حتى يسامح في حياته. مرةً أسر لنا الشاعر الفلسطيني الكبير عزالدين المناصرة بأنه وأصدقاء مشتركين بينه وبين ناجي، عرفوا بأنّ الأخير كان مدعواً إلى العشاء عند الرئيس الفلسطيني الراحل أبوعمّار، فقرروا ممازحته بأن يمثلّوا عليه بأنه «خان» أفكاره وباع نفسه للسلطة. لذلك، بدأوا بالخروج حال وصوله إلى المقهى الذي يجلسون فيه، فاستشاط غضباً وبدأ بالصراخ فيهم، بأنه لن يخون «المخيم» الذي أتى منه، وبأنه سيبقى ناجي العلي ذا البوصلة المحددة الواضحة. خرج ناجي من المخيّم وتغرّب عربياً وغربياً، لكن المخيّم لم

فاطمة كانت تشبه أي امراة فلسطينية من المخيّم

يخرج من ناجي يوماً. بالعكس، كان كل يوم أقرب إلى المخيّم من كثيرٍ من «زعماء» ادّعوا يوماً بسلطتهم على القضية الفلسطينية. عاش ناجي 51 عاماً (تقريباً)، اهتدى إلى «أثيره» حنظلة في عام 1969، وكتب مقدّمةً مدهشةً تشرح قدومه. كان كأي رسام «كوميكس» يقدّم شخصيته «البطولية» للآخرين كي تكون «رمزاً» له ولهم. كان حنظلة يقول ما لا يستطيع ناجي قوله، ويحكي ما يخشى الرسام البوح به. كان حنظلة شبيهاً بـ «الرجل الوطواط» لبوب كاين وبيل فينغر، و«كابتن أميركا» لستان لي، و«تان تان» لهيرجيه؛ فكما كانت هذه الشخصيات رمزاً لأميركا وفرنسا؛ كان حنظلة رمزاً لفلسطين وللمخيمات. كان مؤثراً إلى هذا الحد: شديد الالتصاق بالناس الذين يشبههم ويحادثهم ويتحدّث عنهم. يشبه أي طفلٍ يمكن مشاهدته في أزقة المخيّم الضيقة (الشعر القصير للغاية الذي كانت «تفرضه» مدارس الوكالة/ الأونروا؛ الثياب الممزّقة التي لطالما ارتديناها في الأزقّة وخصوصاً تلك المرقّعة؛ وأخيراً عدم انتعال حذاء). فاطمة ومحمد والفدائي وأبو اللوز وأبو الهمم الشخصيات الأخرى من رسوماته كانت تنضح «محليةً» وعالميةً في الوقت ذاته. فاطمة كانت تشبه أي امراة فلسطينية من المخيّم (وأي امرأة من الأحياء الفقيرة في أي من المدن العربية)، وكذا كان الفدائيّ ومحمد؛ فيما أبو اللوز وأبو الهمم بكروشهم الكبيرة وثيابهم الثمينة كانوا يقدمون صورةً عن «المتسلقين» و«الانتهازيين» وحتى «المثقفين الكَتَبة» في أي زمانٍ ومكان.

من كان يعرف ناجي إبان حياته، يعرف كم كان حنينه كبيراً لأهله وأصدقائه في مخيّم عين الحلوة. يعرف كم ارتبط بالمخيّم وأهله. كم كان عين الحلوة يعني له حين ترك كل شيءٍ في بيروت خلفه إبان اجتياح عام 1982 وذهب إلى مخيّمه وخرج منه بأعجوبة بعدما ظنَّ زملاؤه في الرحلة بأنه قد استشهد. اليوم؛ يقبع مخيّم عين الحلوة تحت النيران من جديد؛ تتغيّر مسميّات القتلة، وحده حنظلة لا يزال ينظر إلى ما يحدث، وينظر صوب فلسطين في انتظار عودته، لا أكثر ولا أقل.

هناك من سيواصل الطريق

طارق حمدان

بينما كانت الرصاصة تقطع الطريق من فوهة المسدس إلى رأس ناجي العلي، كانت رصاصات أخرى تطلق على مشروع تحرر وطني، على فلسطين التاريخية وعلى ملايين الفلسطينيين خارج الوطن المحتل وداخله. في واحدة من رسومات العلي، يظهر أحد الإسرائيليين وهو يصلي «اللهم ثبت شرعيتهم وأكثر من قادتهم واجعل زعماءهم بعدد المستوطنات.. لنطمئن إلى الأبد!».

الوعي، هو أخطر ما يمكن أن يتصوره أي مستعمر أو أي سلطة شمولية، فالمطلوب إنسان خانع بلا وعي ولا كرامة، ووجود العلي لم يكن في مصلحة أي من اللاعبين وقتها، لا الاحتلال ولا بعض القيادات الفلسطينية التي فرطت بالحق الفلسطيني، ولا حتى الأنظمة العربية التي كثيراً ما لعبت دور المتواطئ. كان يواجههم جميعاً عارياً إلا من أقلامه وصفحاته البيضاء، وكان هذا كافياً لزعزعتهم ودب الرعب في قلوبهم. فنان يقلب الطاولة على الجميع ويرحل قادراً على مطاردتهم حتى بعد ثلاثة عقود على رحيله.

كانت مهمته أن يرى عيوبنا، كفلسطينيين وعرب، مهنته النقد وهذه مهنة صعبة في مجتمعات تخاف النقد وتحاربه وتشيطنه. نقد البيت الفلسطيني السياسي وحتى الثقافي كان من أولوياته. لطالما فضح الزيف والفساد، ووضع العراقيل أمام الصورة التي كانت تريد ايصالها النخب السياسية (المعصومة عن الخطأ) أو حتى النخب الثقافية التي «يحق لشاعرها ما لا يحق لغيره». كان مرآتهم التي أجبرهم أن يروا فيها عيوبهم، وهذا كان يكفي ليخلق له الكثير من الأعداء. لم يكن لديه آلهة ولا رموز ولا خطوط حمر، لا يعرف سوى خط أحمر وحيد هو التطبيع والحديث مع المحتل. كان عدو الأنظمة المسيطرة وتلك الخانعة، ضد المنظومة الفلسطينية الآخذة معالمها بالتشكل في الثمانينيات، وضد كل المؤسسات ما دامت فاسدة وذات بوصلة معطوبة؛ كأناركي يقف وحيداً في مواجهة من

ابن المخيم حافي القدمين لا أحد تواجد في فلسطين كما يتواجد فيها الآن

تحولوا إلى سياسيين ورجال أعمال، ومنتفعين على شكل موظفين وعمال مياومة، هو الناجي بكرامته، خلافاً للناجين بالسلطة والمال. كان يخاف المال وينظر إليه كمفسدة تحرفه عن طريق النضال. لم يفكر يوماً بسلطة ولا بأضواء، الفنان الذي شغل العالم العربي قاطبة، قلما نجد له حوارات في جرائد أو لقاءات مصورة، إذ كان يعيش لمهمة واحدة متمثلة في مقاومة المحتل وفضح الضعف والعهر السياسي الذي لطالما كان أداة لذاك المحتل.

لهذا نجده الآن حاضراً في كل شوارع فلسطين، ابن المخيم حافي القدمين لا أحد تواجد في فلسطين كما يتواجد فيها الآن؛ أيقونة للكرامة والمقاومة لا الخنوع والاستسلام.

من قتل ناجي العلي سؤال قد يهم عائلته، وخارج ذلك تتضاءل أهمية الإجابة عليه. لا يهم فعلاً أن نعرف من قتل ناجي العلي بالتحديد، أو تفصيل إلى من تنتمي الرصاصة الغادرة، قتل الفنان من الخلف حاله كحال شعب بأكمله ما زال يقتل من الخلف منذ أكثر من 70 عاماً بأدوات وجهات مختلفة كلنا يعرفها. من استهدف ناجي العلي كان يستهدف الوعي الفلسطيني والعربي. لكن هذا الوعي الذي حورب بالرصاص والمؤسسات على مدى عقود سيبقى قادراً على مفاجأة خصومه دائماً، ستندلع الانتفاضة الفلسطينية الأولى بعد بضعة أشهر على اغتياله، قبل أن تخمدها كروش لطالما ظهرت في رسومات الفنان، ذاتها الكروش التي ما زالت تتحكم حتى الآن بمصير شعب تم تشريده وسرقة أرضه. لكن هذا الوعي سيظل يطاردهم، نصادفه كل يوم في أزقة وشوارع الوطن المحتل، شهدناه الشهر الماضي في ساحات القدس «يدق ساري علم فلسطين في تراب الوطن» متمثلاً بجيل جديد يرفض الهزيمة و«الحلول السلمية» التي طحنت الكرامات وضيّعت الحقوق. جيل كان للتو قد دخل العالم فاتحاً أعينه الحمراء على حديد يحرث السماوات والأرض؛ بينما كان العلي يرقد في مشفاه في لندن واثقاً بأن «هناك من سيواصل الطريق».

رسوم غير منشورة لناجي العلي، خصّت بها عائلة الشهيد، مشكورةً، جريدة «الأخبار»